1999 ٢٤/٩

صعاليك وخوارج

كانت سوداء فحمية، نافرة العظام، مقوسة الظهر، مجرودة اللحم، مفلوحة البطن، معروقة اليدين، مترهلة البنايات، مرقعة الثياب، وسخة اليدين والقدمين، منكوشة الشعر، شفاهها من حطب وحلقها يباس. مدينة لنا وللجيف والعفن والكلاب الشاردة والقطط المواءة، وكل مسلولي الارض ومنفييها.

مكب مفتوح تظلّله غمامة من النفايات، ومع ذلك، ولذلك، كانت اجمل الأمهات. لقد سلمونا بيروت، ورحلوا.

قالوا خذوها، فقد برصت وتبقع جلدها وتساقط شعرها وتسوست أسنانها.

خذوها، فلا مربع بعد فيها، ولا مقصف، ولا فندق، ولا مسبح، ولا مضجع، ولا مصرف.

خذوها تشرب من الآبار، وتسهر على اللوكسات، وتستحم بمياه المجارير.

خذوها بلا مطار ولا مرفأ ولا مدخل ولا مخرج، خذوها تصبح على قصف وتمسي على انفجار. مفخخة بالموت من داخل مسورة بالموت من خارج، مضطجعة على الموت كل حين.

ولزمناها كما تلزم أمك العجوز الدميمة، وقلنا ما أنبل قبحها وأطهر وسخها، هذه الحرة لا تأكل بثدييها.

البعض منا ارتحل نشداناً للأمان، البعض أغوته السلامة في الصمت، والبعض غافل جسده فبدل عينيه وفئة دمه.

وبقي الأبناء جالسين في الدار، كراماً بلا عيب ولا انكسار عين.

●●●●

كنا أقواما غفيرين، عجيجا من الخلائق المختلطة، وكنا واحداً، مهاجرين وأنصارا، جددا وعتاقا مؤلفة قلوبهم في هوى المرأة الواحدة.

امّحت الحدود بين لبناني وفلسطيني، بين لبناني وعاشق عربي لبيروت، بين ابن بيروت وساكنها، بين كهل وصبي.

بين مؤمن بابن عبد الله، ومؤمن بابن مريم. بين صاحب جنسية ومكتوم.

بين من أصاب علماً ومن أصابه الجهل. بين عامل ومتبطل. بين صاحب مسكن ومستأجر، بين بائع وشار، بين صحيح وعليل.

خلعنا انتماءاتنا وانتمينا الى بيروت.

خلعنا اسماءنا وتسمينا المحاصرين.

كل الأوراق عرفت تواقيعنا. كل الآذان عرفت اصواتنا المجروحة. كل المستشفيات عرفت أوجاعنا. كل الملاجئ عرفت أنفاسنا. وفي عفن جدرانها واختناق هوائها وزمجرة مولداتها نبت لنا صبي جديد. بقي ينتفض شهوراً كلما دوّت السماء تستعين امه نجاة بالصحيفة المطوية حتى تحرك الهواء الثقيل امام فتحات الملاجئ او على ادراجها وبقيت تسقيه ماء مذاباً بالشمس، حتى لا ينشف عوده، وتفر به وأخاه، وبعضا من تاريخنا، من عين الجنية الراعدة.

انقطعنا عن عائلاتنا، لنستوي في «السفير» عائلة، ملقين على النساء ومنهن أم الصبيين التعب والوجع والخوف والعتمة والوحشة وانقطاع الوصل، فاستحققن كرامة ستبقى لباساً لهن مدى الدهور.

●●●●

كنا جمعا من قبائل «الأنكا» يأتينا علماء الإناسة والاجتماع والألسنيات من بلاد الحضر، ليفحصوا دمنا وبشرتنا ونوع مأكلنا، ومدى انتصاب ظهرنا، ولهجاتنا ومفرداتنا وطرائق عيشنا وتناسلنا ومقدار ذكائنا.

كنا نعلم اننا لم نعد نليق بحرف الـ F ١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٨... وأننا نقاتل ببضع كلمات وبضعة أجساد وكسرات من الأحلام وغمر كثير من الوفاء.

كنا نعلم اننا في اللحظة الاخيرة قبل سدل الستارة فقلنا ليكن الوداع مهيبا... وكان.

كنا نعلم أنهم على الباب. وغدا نكون خارجه، او تحت التراب او في الأقفاص.

كنا نعلم اننا الحكاية والذكرى والقصة التي ستروى للصغار وأن المنتصر يكتب التاريخ.

لكننا كنا نعلم أننا لسنا عاقرين، وأن العشق تحسنه كل الأجيال.

فلبثنا ملتصقين بالبنايات، بالكلمات، بالبدايات، بالأهازيج، في خير مدينة أخرجت للناس، يوم صارت أمة العرب أنحس أمة تكذّب كتابها وتكذب نبيها، وتكذب كل من أرسل فيها قولاً محموداً.

لو كنا نساء لاهتاجت على أردافنا انظمة العرب،

لو كنا خصياناً لجاؤونا بالعطايا وراودونا في الأسرة.

لو كنا خيولاً لما أذنوا أن لا نغتسل إلا بالعطر كل صباح،

لو كنا من الهجن لأعتقوا الواحد منا بألف برميل،

لكنا كنا جمعاً لا يستطيبه أمير في مجلسه، ولا يحلم به شيخ في منامه.

جمع فاسد من الصعاليك والخوارج، يتأبى مجالس الولاة ويطفر ليلاً مع الضباع وذوي المخالب، ينشد لفلسطين، ويشعل النار في المضارب ليلا ليقري فقراء العرب.

... وكان ما كان مما بات في جلودنا.

وفيما كنا نطعم الناس كلماتنا كل صباح، اختار آخرون ان يطعموا أجسادهم خبزا ساخنا على الصاج، واحد قرب ذاك المقهى، كثيرون عند عتبة المتحف.

وانقضى زمن الاجتياح، وتلته أزمات اجتياحات. حتى أتى زمن الجرافة.

جرافة ماكرة، سوداء، هازئة، لا تتأنى ولا تترفق ولا تحن ولا تدمع. جرافة بلا أهل وأقرباء وعشراء. جرافة ولدت نفسها، جرافة لم تسكن حياً دافئاً، ولا قطفت ياسميناً من عريشة، ولا سهرت مرة في ساحة الشهداء.

جرافة مغولية. جرافة من الانكشارية.

تفلح وتقصف حتى صرنا حليقي التاريخ.

مدينة مقصوصة الشعر منتوفة الذاكرة.

وجه من حديد ويدان من ألومنيوم.. مضاءة جدا ولا تضيء،

فسيحة ولا تضم سمار السهر.

جديدة ومتفسخة الأطراف.

وقبل هذا، وبعده، وعليه، ونحوه، مدينة ناقصة.

فيوم غادرها نبيل هوشر، وعبد الرحمن لاوند وعلي الخشن وعدنان حلواني، صارت ناقصة.

ولن تكتمل. ولن نكتمل.

جورج ناصيف

القيت هذه الشهادة مساء أمس في اللقاء الثقافي الذي دعا اليه المجلس الثقافي للبنان الجنوبي لمناسبة ذكرى تحرير بيروت من الاحتلال الاسرائيلي.